الكتاب والمؤلف

لا شك أننا نحيا مرحلة فريدة من تاريخ الإنسان، بلغ فيها العلم قممًا عالية، جعلته يقوم بدور لا نظير له فى الحضارات السابقة. وقد صاحب ذلك **زوال الكثير من الحواجز بين العلم الحديث والقضايا الغيبية**، كالألوهية والروح والدين، فأصبح الامتزاج بين العلم والإيمان حقيقة واقعة، حتى شاع بين العلماء القول بأن الفيزياء الحديثة قد أصبحت تعيش فى تخوم الميتافيزياء.

لذلك أعتبر أن «رحلة عقل» التى أبحر بنا فيها مؤلفها د. عمرو شريف بين عوالم الفكر والدين والعلم، رحلة جاءت فى موعدها تمامًا.

ومؤلف الكتاب، بالإضافة لمعرفتى به كأستاذ متميز فى الجراحة (فى الجانبين العلاجى والتعليمى) بكلية الطب بجامعة عين شمس، له اهتمامات علمية وفكرية عميقة متنوعة، تمثلت فى ثلاثة مؤلفات قبل هذا الكتاب. أولها: كتاب «**أبى آدم، من الطين إلى الإنسان**» ويطرح فيه مفهوم «الخلق بالتطور الموجَّه» الذى لا يتعارض مع الدين، وكتاب «**رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية**» والذى يحلل فيه (من خلال المفكر الكبير) الحضارة المادية الحديثة وما أفرزته من نتائج أهمها الحركة الصهيونية، وأخيرًا كتاب «**المخ ذكر أم أنثى؟!**» (الذى قدمتُ لطبعته الثانية) والذى تناول فيه بعمق المتخصص وتبسيط المستوعِب الفوارق البيولوجية بين مخ الرجل ومخ المرأة.

ويشتمل كتاب «رحلة عقل» على جزءين. يعرض المؤلف فى الجزء الأول منه **الرحلة العقلية لأستاذ الفلسفة البريطانى، سير أنتونى فلو**، الذى **يُعتبر أشرس ملحد فى النصف الثانى من القرن العشرين**؛ إذ كانت كتاباته بمثابة جدول أعمال الملاحدة خلال تلك الفترة، وعندما جاوز الثمانين من عمره فاجأ العالم بأنه قد أصبح يؤمن بأن «هناك إله»، وأصدر عام ٢٠٠٧

كتابًا يشرح فيه الدوافع وراء هذا التحول، والتى تتلخص فيما أظهرته الاكتشافات العلمية الحديثة من تعقيد مبهر فى بنية ونشأة الكون والحياة.

وفى الجزء الثانى من الكتاب، ينتقل المؤلف من رحلة أنتونى فلو العقلية إلى رحلته هو. فيطرح للتقويم أربعة مفاهيم أساسية لا بد أن تدور حولها التساؤلات فى عقل كل إنسان يهتم بالفكر وبالدين وبنفسه. فيبدأ بتقويم الاكتشافات العلمية حول نشأة الكون، من ناحية دلالتها على وجود الإله الخالق (**البرهان الكونى**). وهل قصد الإله أن يكون الكون مُعَدًّا لنشأة الإنسان (**المبدأ البشرى**).

ثم ينتقل الكاتب بنا من هذه السياحة العلمية إلى مفاهيم التدين والإلحاد. فيعرض علينا **الديانات المختلفة التى يدين بها البشر**)، ويضع لنا قياسات موضوعية للحكم على ما تعرضه هذه الديانات من مفاهيم. ولا شك أننى لم ألتقِ من قبل بهذا الأسلوب العلمى فى النظر إلى الأديان؛ إذ اعتدنا على استبعاد المفاهيم الدينية من التقويم الموضوعى.

وإذا كان الأمر لا يُعرَف إلا بنقيضه، فقد وضع المؤلف **مفاهيم الفكر العلمانى** فى الميزان، لنرى إن كان هذا الفكر يقف على أعمدة صلبة أم أنه مجرد فرار من الالتزامات الدينية.

ولا تكتمل الرحلة العقلية مع الأديان دون النظر فى **العلاقة بين ما نشعر به من مشاعر روحية ودينية وبين بيولوجيا الإنسان**. ويفاجئنا الكاتب بالأدلة العلمية على أن هذه المفاهيم مدموغة فى جيناتنا وفى أمخاخنا!.

وإذا كان الملحدون يأخذون على الأديان أنها تجعل **للقلب دورًا فى المنظومة المعرفية والشعورية**، فقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا للتنقيب فى الأبحاث العلمية الحديثة التى تؤيد هذا المفهوم.

ويبلغ اجتهاد الكاتب ذروته عندما **يطرح المفاهيم الغيبية الخاصة بجوهر الإنسان (الروح/ النفس) للتمحيص العلمى**؛ إذ إن لهذا الجوهر وجودًا فى عالم الشهادة، ومن ثم لا يستعصى عن البحث والنظر. كذلك يدهشنا الكاتب عندما **يطرح للتمحيص العلمى رحلة الوجود الإنسانى**: منشأه فى عالم الغيب، مساره فى الحياة الدنيا، منتهى رحلته بعد الموت.

ولا يفوت المؤلف عند ختام الكتاب أن يعقد مقارنة بين الفكر الفلسفى الدينى الإسلامى وبين الرحلة العقلية لأنتونى فلو. فاختار لذلك قصة حى بن يقظان للفيلسوف الأندلسى ابن

طفيل، وأظهر لنا جوانب السبق فى هذه الرحلة التى كُتبت منذ ثمانية قرون.

وبهذا التناول المتكامل العميق، وبهذا العرض العبقرى، يقنعنا الكاتب أن القضايا الغيبية التى تطرحها الأديان، ابتداءً من مفهوم الألوهية إلى حقيقة الذات الإنسانية إلى رحلة الإنسان فى الوجود، **تعتبر بمثابة الحقائق المطلقة التى تخضع للبراهين العلمية والعقلية.**

ولا شك أن هذا الطرح جديد كل الجدة، ويعتبر **ثورة فى المفاهيم العلمية وثورة فى النظرة إلى الدين.**

بعد هذا العرض لأفكار كتاب رحلة عقل، أسجل فى السطور التالية **بعض الملاحظات التى** خرجت بها من مراجعتى لأصول الكتاب:

إذا كان الكاتب قد استغل رحلة أنتونى فلو كمدخل لطرح رحلته العقلية، فلم يقف عند ذلك الحد، بل **حرص على استنفار القارئ ليُعمل عقله لتكون له رحلته الخاصة به.** ومن أجل معاونته فى ذلك قام الكاتب بعرض بعض التفاصيل العلمية والفلسفية (فى متن الكتاب وفى هوامشه)، لتكون مادة يبحر فيها القارئ بعقله. فنجده يُبَسِّط لنا نظريات الفيزياء الحديثة كنظرية الكم (الكوانتم) والنظرية النسبية والقوانين الحاكمة للصدفة، ويطرح علينا بنية وآلية عمل الشفرة الوراثية (الدنا DNA)، ويُبَسِّط لنا بعض النظريات الفلسفية، وعقائد الديانات المختلفة، وغير ذلك.

وقد استعمل الكاتب **أسلوب الحوار مع الأطراف المعارضة**، لما له من تأثير إقناعى قوى عند طرح القضايا الخلافية. فنجده يدير حوارًا مع الملاحدة، وحوارًا آخر مع الماديين المنكرين لجوهر الإنسان غير المادى، وحوارًا مع المتعصبين الدينيين، وحوارًا مع أصحاب الفكر الباحثين عن الحقيقة.

كذلك حرص الكاتب على **ألا يقفز إلى استنتاجات نهائية حول مفاهيم ما زالت تحت التأسيس**، كعلاقة القلب بالمنظومة الشعورية والفكرية والدينية.

وتلمس فى فصول الكتاب إدراك الكاتب أن **الصراع الحقيقى لا ينبغى أن يكون صراعًا بين الحضارات، أو بين الأديان، لكنه صراع بين التدين والإلحاد.** ولا شك أن هذا الإدراك يزيل ما بين أنصار الديانات المختلفة من خلاف، ويدفعهم للبحث عن جوانب الاتفاق بينهم لمواجهة الإلحاد.

كما تنبه الكاتب إلى **جوانب القصور فى الخطاب الدينى**، سواء عند عوام الخطباء والوعاظ أو عند المهتمين بقضايا الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. كما أدرك ما يؤدى إليه هذا العرض القاصر من **فقدان الثقة فى الفكر الدينى**. ولا شك أن ذلك أحد أسباب ما يعانيه المسلمون من تخلف حضارى. وأشارك المؤلف حملته لاستنفار الغيورين على الدين، وبصفة خاصة المهتمين بالعلم والفلسفة، لأن ينزلوا إلى الميدان ليتحملوا كامل مسئولياتهم فى **الثورة التى تهدف إلى تجديد الخطاب الدينى**.

والقارئ للكتاب يدرك بوضوح أن المؤلف لا يقف عند **منازلة الملاحدة** ليردهم إلى حظيرة الإيمان، لكنه يخاطب فى المقام الأول المتدينين الذين يسعون لأن يرقوا بتدين الميلاد إلى يقين العقيدة، والمتدينين الذين يشعرون بالنقص عند مواجهة الإلحاد المتشح بثياب العلم.

وفى ختام هذا التقديم والتعريف بالكتاب وبمؤلفه، أُسجِّل أنه إذا كان أنتونى فلو قد توصل فى رحلته العقلية إلى أن هناك إلهًا، ثم توقف عند قضايا الغيب التى تطرحها الأديان، فإن د. **عمرو شريف قد فاق أنتونى فلو فى استدلالاته على قضية الألوهية، وواصل رحلته العقلية بنجاح فى الاستدلال على باقى القضايا الغيبية**.

لذلك فإننى أهيب بكل باحث عن الحقيقة، وكل متدين يبحث عن يقين العقيدة، وكل ملحد، **أن يقرأ هذا الكتاب قراءة متأنية، وأن يشارك المؤلف** فى هذا الأسلوب الجديد فى النظر إلى العلم وإلى التدين، **وأن يشاركه فى دعوته لتجديد الخطاب الدينى**.

أ.د. أحمد عكاشة

أستاذ الطب النفسى بكلية الطب . جامعة عين شمس
رئيس مركز بحوث الصحة النفسية لمنظمة الصحة العالمية
رئيس الجمعية المصرية للطب النفسى
رئيس اتحاد الأطباء النفسيين العرب
الرئيس الأسبق للجمعية العالمية للطب النفسى

obeikan.com

قبل أن تقرأ هذا الكتاب

سير «أنتونى فلو[1] Sir Antony Flew» (أستاذ الفلسفة البريطانى) اسم ذائع الصيت فى مجالات الفكر والفلسفة والإلحاد والتدين! كان يُعَد بحق من أكبر ملاحدة العصر الحديث، وتعتبر كتاباته الغزيرة جدول أعمال الفكر الإلحادى طوال النصف الثانى من القرن العشرين.

فى التاسع من ديسمبر عام ٢٠٠٤، فوجئ العالم بخبر ما زال صداه يتردد فى الأوساط الفلسفية والعلمية والثقافية والدينية؛ لقد أعلن أنتونى فلو (بعد أن بلغ من العمر ثمانين عامًا) أنه قد صار يؤمن بأن «**هناك إله**». وقد أذاعت وكالة أنباء الأسوشيتد برس الخبر بعنوان:

«ملحد شهير يؤمن بالإله، بدافع من الشواهد العلمية»

Leading atheist now believes in God, more or less,
based on scientific evidence.

أصاب الخبر الملاحدة من زملاء أنتونى فلو وتلاميذه بهستيريا عارمة، حتى امتلأ إعلام العالم الغربى الحر بسخريتهم وازدرائهم لهذا التحول!

وقد طُلب من أنتونى فلو مرارًا أن يُصدِر كتابًا يعرض فيه رحلته، من صبى مؤمن إلى رجل ملحد إلى شيخ فى الثمانين يؤمن بوجود الإله. وأخيرًا صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتَظَر:

«هناك إله: كيف عَدَلَ أشرسُ مُلحدٍ عن الإلحاد»

There is a god; How the World's most
notorious atheist changed his mind.

ونقوم فى كتابنا هذا «**رحلة عقل**» بعرضٍ لكتاب أنتونى فلو «هناك إله»، ثم طرح قضية العلاقة بين الدين والعقل والعلم للتحليل. ولـمَّـا كان الكتاب يدور حول الفيلسوف الكبير

(١) وُلد فى لندن فى ١١/ ٢/ ١٩٢٣.

الذى انتقل من الإلحاد إلى الإيمان بوجود إله، بعد أن راجع مفاهيمه الفلسفية والعلمية، وجب أن نعرض فى هذا التقديم تعريفًا بالإلحاد المعاصر ونشأته، وكذلك تعريفًا بالفلسفة والعلم وعلاقتهما بالدين، حتى نستطيع أن نتابع هذه الرحلة العقلية الممتعة.

أولًا : نشأة الإلحاد المعاصر وسماته[١]

حتى نُدرك مقدار وأسباب ما أصاب الملاحدة فى العالم الغربى من لوثة، بسبب موقف أنتونى فلو الجديد، علينا أن نتفهم الظروف المحيطة بنشأة الإلحاد فى أوروبا فى العصر الحديث.

تبدأ القصة منذ عدة قرون...

حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الأساسى للمعرفة فى أوروبا هو الكتاب المقدس بعهديه (العهد القديم: التوراة، والعهد الجديد: الإنجيل)، كما تبنى رجال الدين فى الكنيسة الكاثوليكية **آراء أرسطو**[٢] **وبطليموس**[٣] **العلمية** حول الكون وكوكب الأرض والفيزياء والكيمياء والتاريخ الطبيعى...، وألحقوها بمفاهيمهم المقدسة.

بناءً على هذه المصادر، **كَوَّن إنسان العصور الوسطى فى أوروبا صورة عن العالم**، هى:

١- **تقف الأرض ثابتة فى مركز الكون**، وتدور الشمس والقمر وبقية الكواكب حولها فى دوائر.

٢- خَلَقَ الله العالم **عام ٤٠٠٤ ق.م**. وقد استنتج الكهنة هذا التاريخ من جَمْع أعمار الأجيال المتتابعة من أبناء آدم، كما جاءت فى التوراة فى سفر التكوين[٤].

٣- سوف تكون نهاية العالم (أى يوم القيامة) فى تاريخ ليس ببعيد، عام ٤٠٠٤ ميلادية. وذلك لكى تتوسط حياة المسيح تاريخ العالم.

(١) عن مقدمة كتاب «الدين والعقل الحديث» للفيلسوف الأمريكى والتر ستيس، المنشور بالعربية عام ١٩٩٨، ترجمة أستاذ الفلسفة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى.

(٢) للتعريف بأرسطو انظر هامش ص ٥٠.

(٣) بطليموس Ptolemy : وُلد فى طيبة بمصر عام ٨٥م، ومات بالإسكندرية عام ١٦٥م، وهو فلكى ورياضى وجغرافى، من أشهر علماء التاريخ القديم، ظلت مفاهيمه الفلكية سائدة حتى العصور الوسطى.

(٤) العهد القديم هو كتاب اليهود المقدس، واعتُبر أيضًا الجزء الأول من الكتاب المقدس عند المسيحيين. وتوراة موسى هى أول أجزاء العهد القديم وأهمها؛ حتى يمكن إطلاق اسمها عليه مجازًا. وسفر التكوين هو أول أسفار التوراة الخمسة، ويحكى قصة الخلق من بدايته حتى وفاة نبى الله يوسف عليه السلام.

٤- خلق الله العالم فى لحظة ما فى الماضى، تمامًا كما يصنع البشر المنازل والآلات والأثاث. والفارق الوحيد هو أن الناس تصنع ما تصنع من مواد موجودة سلفًا.

٥- يسير العالم طبقًا لخطة إلهية مُحكمة؛ فكل شىء فى الكون له هدف وغاية (الغائية). فقد خُلقت الشمس لكى توفر النور للإنسان خلال النهار، بينما يُزَوِّده القمر بالضياء ليلًا، كذلك يظهر قوس قزح ليُذَكِّر الإنسان بوعد الله للنبى نوح بألا يُدَمِّر الجنس البشرى مرة أخرى عن طريق الطوفان.

وإذا كانت هناك أشياء مقززة، كالحشرات والثعابين والقاذورات، فقد تكون عقابًا للإنسان على خطيئته الأصلية، حين عصى آدم ربَّه وأكل من الشجرة.

وفى النهاية، لا يمكن لعقل الإنسان الكشف عن جميع أسرار الخطة الإلهية. ولكن عليه أن يثق كل الثقة فى أن لكل شىء غرضًا.

٦- يمثل العالم نظامًا أخلاقيًّا، وهذه فكرة بالغة الأهمية فى التاريخ العقلى والروحى للجنس البشرى. وهى تعنى أن القيم الأخلاقية (كتحديد الخير والشر) مطلقة يحددها الإله، وليست نسبية تعتمد على رغبات البشر ومصالحهم ومشاعرهم.

٧- ويقف وراء ذلك كله إله خالق، ينظر إليه إنسان العصور الوسطى، باعتباره عقلًا واعيًا أو روحًا، ليس له جسد مادى، له أفكار وتصورات، وربما انفعالات وعواطف أيضًا.

٨- رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس، فى قبول التوبة والحصول على الغفران، ودخول الجنة.

لقد أعطت الهيمنة على الدين والعلم رجال الكنيسة القوة، متمثلة فى السلطة والثروة. ولقرون طويلة مارست الكنيسة الكاثوليكية فى روما سلطتها على شعوب أوروبا وحكامها، حتى إنهم كانوا يُنَصِّبون الملوك ويعزلونهم.

ولما كان الشعور الدينى شعورًا فطريًّا، تقبل الناس هذه الهيمنة، وضحوا بحريتهم ومالهم لصالح رجال الدين[1].

(١) يكرر هذا النمط من سيطرة رجال الدين على العامة وحكام نفسه عبر التاريخ. فإذا كان المصريون القدماء ينظرون إلى ملوكهم الفراعنة باعتبارهم آلهة، وينظرون إلى الكهنة باعتبارهم حلقة الوصل بين الناس وبين الآلهة فى الأرض وفى السماء، فبمجرد أن حاول أخناتون تحدى سلطة رجال الدين، قتلوه ونَصَّبوا توت عنخ آمون كفرعون وإله بدلًا منه!

ثم وقعت الطامة الكبرى، عندما أعلن **كوبرنيكوس**[1] (بحساباته الرياضية) وأثبت **جاليليو**[2] (بتلسكوبه) أن الأرض ليست مركز الكون، بل هى مجرد كوكب تابع يدور حول الشمس. لقد دفعا ثمنًا غاليًا لعلمهم وشجاعتهم؛ إذ تبنت الكنيسة حملة شعواء لاضطهاد وتعذيب وقتل العلماء باعتبارهم من السحرة والمشعوذين.

كذلك كان اكتشاف الميكروسكوب (عام ١٥٩٥) صدمة كبيرة؛ إذ مَكَّن العلماء لأول مرة من رؤية الجراثيم، التى ثبت بعد ذلك أنها المسئولة عن كثير من الأمراض. كيف ذلك؟! أليس الله (أو الشيطان) هو الذى يُنزل الطاعون والأوبئة بالبشر؟ كيف تستطيع، إذن، صلوات رجال الدين (مدفوعة الأجر) أن تشفى الأمراض؟

إسحاق نيوتن... وآلية العالم...

بلغت الجهود العلمية ذروتها بفضل عبقرية إسحاق نيوتن (١٦٤٢ - ١٧٢٧) التى أتمت إرساء أسس العلم الحديث. لقد كان نيوتن مسيحيًّا ورِعًا، ولا شك أنه كان سيصاب بالهلع لو شعر أن إنجازاته العلمية سوف تُقوِّض أركان الإيمان الدينى فى الغرب.

لقد توصل إسحاق نيوتن إلى **قوانين الحركة الثلاثة الشهيرة، وكذلك قانون الجاذبية**. وقد وصف ـ بدقة من خلال هذه القوانين ـ بنية المجموعة الشمسية (الشمس والكواكب الدَّوَّارة حولها). وهى القوانين نفسها التى تصف سقوط التفاحة من الشجرة، كما تصف ما يحدث إذا تصادم قطاران.

لذلك شَبَّه الفيزيائيون النظام الشمسى (كما شرحه نيوتن) **بالساعة الزنبركية**، التى تُملأ ثم تُترك لتعمل تلقائيًّا. إن قوة الجاذبية، وقوة الطرد المركزية وقوانين الحركة، كفيلة بالمحافظة على عمل النظام الشمسى **دون التدخل من قوى خارجية**.

انتشرت فكرة **آلية العالم** انتشار النار فى الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة فى أوروبا بتفسير كل شىء من خلال منظور الآلية. حتى إن توماس هوبز (فيلسوف الإلحاد البريطانى الشهير) شَبَّه أجهزة جسم الإنسان بمجموعة من الآلات التى **تحكمها القوانين الفيزيائية**.

(١) «كوبرنيكوس ـ Copernicus»: فلكى بولندى (١٤٧٣ - ١٥٤٣)، وقد نشر نظريته فى كتابه De revolutionbus Orbium Coelestium الذى صدر يوم وفاته.

(٢) «جاليليو ـ Galileo Galilei»: عالم الفلك الإيطالى الشهير (١٥٦٤-١٦٤٢).

وقد لاحظ نيوتن **اختلافًا طفيفًا** بين ما ينبغى أن تكون عليه مدارات الكواكب كما تحددها حساباته، وبين المدارات الفعلية التى يرصدها التليسكوب. وإذا **تراكمت** هذه الفوارق مع مرور الزمن، لانقلب النظام الكونى رأسًا على عقب؛ إذ إن الكواكب قد تبتلعها الشمس، أو قد تفلت من سيطرتها وتندفع فى الفضاء الكونى السحيق.

تغلب نيوتن على هذا الإشكال بأن قال بأن **الله يتدخل من وقت لآخر ليُعدِّل مسارات الكواكب!** لقد كانت هذه آخر مرة يطرح فيها عالِـم عظيم فكرة تدخل قوى غيبية، كتفسير لظاهرة طبيعية.

ثم أثبت الفلكى الفرنسى **ماركيز لابلاس** (١٧٤٩ - ١٨٢٧) أن الانحرافات التى عجز نيوتن عن تفسيرها بالقوانين الطبيعية **ليست تراكمية**، وأنها تلغى بعضها بعضًا بعد فترة من الزمان، وبالتالى لا تحتاج إلى تدخل إلهى لتصحيحها. لذلك أجاب «لابلاس» نابليون (عندما سأله عن دور الإله فى النظام الكونى) بأنه لا يرى حاجة للقول بهذا الافتراض!!

الإلحاد يطل برأسه...

لكن، كيف تسببت هذه الاكتشافات (وغيرها كثير) فى الصراع الذى نشب بين العلم والدين فى أوروبا؟

لم يكن الصراع بين العلم والدين **بسبب مكتشفات «مُعَيَّنة» للعلم تعارض معتقدات «مُعَيَّنة» للدين**.

كذلك فإن المفاهيم التى كان على الكنيسة أن تتخلى عنها، أمام طوفان العلم، لم يكن منها ما هو ضرورى للدين.

تتلخص أساسيات الدين فى ثلاث نقاط، نطلق عليها **«النظرة الدينية للعالم»**:

١- هناك **إله** خلق الكون.

٢- هناك خطة كونية وغرض كونى للخالق من الخلق (**الغائية**).

٣- العالم يمثل **نظامًا أخلاقيًا** يحدده الإله.

من المؤكد أنه منذ بداية الثورة العلمية فى القرن السابع عشر - وحتى الآن - **لم يظهر اكتشاف علمى واحد ولا وُضعت فكرة منطقية تعارضت مع هذه الأساسيات، التى لولاها لانهدم الدين**.

ومع ذلك، فإن الثورة العلمية كان لها بالفعل أثر مدمر للدين؛ إذ أعقبها مباشرة نزعة شَكِّية إلحادية كبرى، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك فى التاريخ الحديث، حتى أن ملك إنجلترا كان يشكو من أن نصف أساقفة كنيسته ملاحدة!

كيف أدت الثورة العلمية إلى زلزلة النظرة الدينية للعالم، بالرغم من أنه سواء كانت الأرض هى مركز الكون أو كانت مجرد تابع صغير يدور فى فلك الشمس، فإن ذلك لا يمنع وجود إله خلق كل شىء ؟

سؤال منطقى آخر: هل نكون أكثر صدقًا وأمانة وأشد إخلاصًا وعدالة لو تمسكنا بقانون الحركة عند أرسطو، ولم نستبدله بقوانين الحركة عند نيوتن؟! لماذا قضت الثورة العلمية على اعتبار أن العالم نظام أخلاقى كما ترى الأديان؟

لماذا...

نؤكد عن يقين أن نشأة الإلحاد وإنكار **(أساسيات النظرة الدينية)** لم تكن مشكلة علمية على الإطلاق، بل **مشكلة نفسية فلسفية!**

يكمن مفتاح فهم هذه المشكلة فى أن **عقول البشر لا تعمل بالطريقة التى يقول بها المناطقة.** فإذا كان اقتناع رجل بفكرة معينة (أ)، ينبغى منطقيًا اقتناعه بالفكرة (ب)، فإن الواقع يخبرنا أن هذا الانتقال المنطقى هو الاستثناء وليس القاعدة!

فالأعم الأغلب هو الانتقال بين الأفكار عن طريق **التداعى النفسى والإيحاء، فهى انتقالات نفسية وليست منطقية.**

إذن، ما هى **العوامل النفسية (السيكولوجية)** التى أدت إلى هذه **النزعة الشَّكية الإلحادية الكبرى؟**

أولًا: لا شك أن ما تعرض له العلماء من **اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة**، قد أدى إلى تبنى العلماء والمفكرين موقفًا عدائيًا من الدين، انعكس على موقف العامة.

ثانيًا: إذا كان نيوتن قد رجع بعلاقة الإله بالكون إلى وقت خلق النظام الشمسى، وترك له دورًا يتمثل فى تعديل مدارات الكواكب من حين لآخر، فقد رجع لابلاس بهذه العلاقة إلى بدء خلق الكون، وألغى قيام الإله بأى دور كونى.

وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الله خلق الكون منذ ستة آلاف سنة، وأنه خلق جدنا آدم بيديه، تلك النظرة التى كانت تعنى أن **العلاقة قريبة** وأن **الله يهتم بنا كثيرًا**.

كذلك كان الشعور بقرب الله يغذيه الإيمان بالتدخل الإلهى المباشر فى حياة البشر، فالصواعق تبيد أعداء الدين، والزلازل تعاقب العصاة. لكن التفسيرات العلمية لمثل هذه الظواهر **لم تدع مجالًا لذلك**.

ثالثًا : يرى من أراد (إمساك العصا من الوسط) أن الله قد خلق العالم، ووضع فيه قوانين الطبيعة التى تُسَيِّره. إن ذلك يعنى أن الإله الخالق لم يعد يفعل شيئًا لنا، وليس له أدنى تأثير فى أحداث العام. إنه ببساطة **إله لا أهمية ولا احتياج إليه!**

رابعًا : نجح العلم فى تفسير الظواهر الطبيعية بشكل لا يحتاج للبحث عن غاية أو هدف. كما نجح بشكل كبير فى التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف. وقد قدم ذلك خدمات مباشرة للإنسان، فأصبح يتحاشى الإبحار فى يوم محدد مثلًا تفاديًا لهيجان متوقَّع للبحر؛ لذلك اقتنع الإنسان بسذاجة تفسيرات رجال الدين ونبوءاتهم.

خامسًا : اعتقد رجل عصر العلم أن نجاح التفسير المادى للظواهر الطبيعية، واختفاء الغائية عن أحداث الكون، يعنى **اختفاء الغائية من خلق الكون**.

سادسًا : عندما لم يعد للإله غاية من خلق البشر وتلاشى دوره فى حياتهم، لم يعد هناك مبرر لأن يضع لهم منظومتهم الأخلاقية (ما يجب عليهم فعله وما لا يجب). وهكذا **هدمت الثورة العلمية الإيمان بأن العالم يمثل نظامًا أخلاقيًّا**، وارتبطت القيم الأخلاقية بمصالح البشر المادية العاجلة.

سابعًا : قدم العلم الحديث للإنسان إنجازات علمية وحضارية، وحقق له رفاهية وثراءً لم يكن يتصورها فى يوم من الأيام، فتبدلت عقيدته من الإيمان بالإله، إلى الإيمان بالعلم وقدراته وإنجازاته.

ثامنًا: لذلك كله، أخذ المفكرون يتساءلون : إذا كان العلم قد قطع شوطًا كبيرًا فى فهم آلية أمور كانت تُفَسَّر بشكل ميتافيزيقى، كالأمراض والرعد والبرق والزلازل...، فما المانع فى أن يتوصل العلم لتفسير كل ما نعتبره ميتافيزيقيًا؟ وبذلك تلاشت تمامًا الحاجة إلى الدين وإلى الإله.

لقد ألقت هذه **الأسباب النفسية**[1] بالمفكرين والعلماء والعامة من الناس فى القرن الثامن عشر فى **مستنقع الشك**، حتى صار القرن التاسع عشر يُعرف ـ بالمقارنة بما قبله ـ بعصر العودة إلى الإيمان، بسبب النزعة الرومانسية التى ظهرت فيه. بل يمكننا القول **إن العقل العلمانى الحديث** هو نتاج الثورة العلمية فى **القرن السابع عشر**، وليس القرن التاسع عشر أو القرن العشرين.

وبدخول القرن العشرين، ظهرت مقولة «**الدين أفيون الشعوب**» التى أطلقها كارل ماركس. ويقصد بها أن الأغنياء والأرستقراطيين يستغلون مفهوم الدين لتخدير الفقراء، وحملهم على قبول ما هم فيه من بؤس كأمر واقع، طمعًا فى الفردوس فى حياة بعد الموت.

نتيجة لذلك كله، شاعت مقولة فريدريك نيتشه[2] التى ألقاها آخر القرن التاسع عشر: **هل مات الإله ؟ ?** Is God Dead. **وبدلًا من أن تظل قولًا لفيلسوف يمثل رأيًا يؤمن به، أصبحت المقولة عنوانًا يتكرر فى الصحف اليومية.**

وينقسم الفكر الإلحادى إلى مجموعتين كبيرتين:

(أ) الفكر الإلحادى القوى Strong (Positive) Atheism

ويمثله الذين ينكرون وجود الإله، ويسوقون على ذلك الأدلة، ويبنون النظريات، ويروجون لفكرهم.

---

(١) بالإضافة إلى العوامل العقلية والنفسية التى رَجَّحت كفة العلم فى الصراع مع الدين فى القرن الثامن عشر، نطرح هنا نوعًا من الخلل النفسى Neurosis الذى يؤدى إلى تبنى الإلحاد على المستوى الفردى، وذلك حتى نستكمل دراسة العوامل النفسية المختلفة وراء تبنى الإلحاد.

بعد دراسات تحليلية مستفيضة أجراها أستاذ الطب النفسى بجامعة نيويورك، بول فيتز Paul Vits،على شخصيات عديدة من ملاحدة العصر الحديث، توصل إلى أن تبنى الإلحاد قد يرجع إلى خلل نفسى عُصابى، Atheism is a Neurosis تقف وراءه رغبة دفينة فى اللاشعور للتخلص من سيطرة الأب والحلول محله (كما يقول سيجموند فرويد)، بينما يقف وراء الإيمان بإله ما يحققه ذلك من الشعور بالأمان.

لذلك طرح فيتز مفهومًا أسماه «منظور التقصير الأبوى ـ Defective father Hypothesis» يربط فيه بين رفض سيطرة الأب البشرى، ورفض الأب الذى فى السماء، ويضرب فيتز الأمثلة على ذلك. فهذا الفيلسوف الفرنسى الكبير فولتير، الذى يُصنَّف من كبار الشكاكين، يعانى بشدة من سوء معاملة أبيه، حتى أنه يلفظ أباه ويرفض أن يحمل اسمه. وتضم القائمة فرويد نفسه، وكارل ماركس، وتوماس هوبز، وآخرين.

كما يرى فيتز أن حرمان الطفل من أبيه بالموت، يعتبره الطفل خيانة حرمته من الدعم الأبوى، تترك آثارها فى نفسه وتعزز فيه الشعور بالاستغناء، ويضرب مثالًا لهؤلاء بـ «جان بول سارتر» و«بيرتراند راسل».

وقد ظل بول فيتز ملحدًا حتى قارب الأربعين من عمره، ثم صار متدينًا ومهتمًّا بالعلاقة بين الدين وعلم النفس. وطرح هذا المفهوم فى أشهر كتبه Fath of the fatherless، the Psychology of Atheism، صدر عام ١٩٩٩.

(٢) فريدريك نيتشه Friedrich W.Nietzsche : فيلسوف الإلحاد الألمانى الأشهر (١٨٤٤ - ١٩٠٠).

(ب) الفكر الإلحادى الضعيف **Weak (Negative) Atheism**

ويمثله الذين لم يجدوا أدلة كافية تقنعهم بوجود الإله.

وينقسم الملحدون إلى ثلاث مجموعات

١- **علماء وفلاسفة**، تبنوا الإلحاد، ثم وجدوا فى نظرية التطور الداروينى (تطور الكائنات الحية نتيجة لطفرات عشوائية تحدث بالصدفة) حجتهم العلمية الكبرى؛ إذ وضعت آلية مادية لخلق الكائنات الحية، فلم يَعُد هناك مبرر لافتراض وجود إله خالق للكائنات، أو للكون!

٢- **الشيوعيون**، الذين يريدون تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك فى وجود المعتقدات الدينية، فينبغى القضاء عليها ولو بالقوة.

٣- عدد لا بأس به من **الصامتين!** من كل الديانات والمجتمعات والأجناس، ممن لديهم شك، لكنهم لا يطرحونه للنقاش. ويمكن إرجاع شك هذه الفئة إلى عاملين :

- **المظهر العلمى والفلسفى** الذى يطرح به أصحاب الفكر الإلحادى القوى أفكارهم.

- **الأسلوب المنغلق الذى تعلموا به دياناتهم**، حيث يرفض معلموهم أى منطق أو علم يخالف ما يفهمون، وهو ما يُسمى بأسلوب «هُوَّا كده» Just-so. كما يَدَّعى هؤلاء المعلمون الانفراد بالفهم عن الله، وأن على الآخرين أن يُسَلِّموا لهم بذلك.

ويتبنى الفكر الإلحادى المعاصر المفاهيم التالية:

١- نشأ الكون تلقائيًا، نتيجة لأحداث عشوائية، دون الحاجة إلى صانع.

٢- ظهرت الحياة ذاتيًا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة.

٣- الفرق بين الحياة والموت هو فرق فيزيائى بحت، سيتوصل إليه العلم يومًا ما.

٤- ما الإنسان إلا جسد مادى، يفنى تمامًا بالموت.

٥- ليس هناك وجود لمفهوم الروح.

٦- ليس هناك حياة أخرى بعد الموت.

٧- من كل ما سبق، ليس هناك حاجة إلى القول بوجود إله.

لا أحسب أن الإلحاد المعاصر بهذه السمات، يختلف عن الإلحاد الذى واجه الأنبياء عند نزول الأديان السماوية.

ثانيًا: الفلسفة Philosophy [1]

لا شك أن **العلاقة بين الفلسفة والعلم علاقة قديمة**. فمنذ البداية كان العِلمان علمًا واحدًا، يهدف إلى غاية واحدة، هى البحث عن الحقيقة وخدمة الإنسانية.

ثم بدأ كل علم من العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية يستقل عن الأم (الفلسفة)، ليقف على قدميه، وتصبح له مُسَلَّماته وركائزه ومناهجه وأهدافه التى يسعى لتحقيقها.

لقد استقل العلم الطبيعى بدراسة ظواهر الكون ومكوناته، ونظمه وقوانينه، ومكوناته. **فالعالِم الفيزيائى** يهتم بدراسة المظاهر الطبيعية للمادة و**العالِـم البيولوجى** يهتم بدراسة الكائنات الحية، من غير أن يفكرا فى أصل المادة والحياة وعلة وجودهما. **والرياضى** يبحث فى الهندسة والحساب (غير مبالٍ بالتفكير فى معنى المكان والزمان). وهم جميعًا يبحثون **بواسطة العقل** الذى يتمتعون به، من غير أن يفكروا فى كُنْه هذا العقل، ومدى قدرته على إدراك الحقيقة.

وبالرغم من ذلك، ظلت **جذور كل علم تتصل بأصلها الأول**؛ لذلك يدرس العلماء فلسفة العلوم وفلسفة الطب، وفلسفة الجغرافيا وفلسفة التاريخ وفلسفة اللغة وفلسفة التربية وغيرها.

أَمَّا الفيلسوف، فإنه يريد أن يفهم أصل الكون وعلته وحقيقته، وحقيقة المادة وأصلها وعلة وجودها، ومعنى المكان والزمان، وكذلك حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقيقة. أى أن **الفيلسوف** يتناول فى درسه وبحثه، **المعقولَ والعقلَ**، فى آن واحد.

ولا تكتفى الفلسفة بهذا العالَـم المحسوس، بل تريد أن تعرف **الخالق** لهذا العالم، وما كُنْه ذاته، وما حقيقة صفاته.

وما هو **الإنسان**، وما حقيقته.

وما هو الخير، وما هو الجمال، ولِـمَ كان الخير خيرًا، والجميل جميلًا؛ إلى غير ذلك من الأسئلة التى لا تنتهى.

---

(١) Philosophy لفظ يونانى يتكون من مقطعين Philo = حُب و Sophia = حكمة، فيكون تعريف الفلسفة لغويًا: حُب الحكمة.

لذلك قالوا: إن الفلسفة تشتمل على ثلاثة مباحث أساسية

- **فلسفة الوجود.**
- **فلسفة المعرفة.**
- **فلسفة القِيَم.**

وبتأمل هذه المباحث الثلاثة، نجد أن الفلسفة فى جوهرها هى «**البحث عن الله**». وقد عَبَّر رينيه ديكارت[1] عن ذلك بقوله: «**الفلسفة شجرة، جذورها الميتافيزيقا**[2] **وثمرتها معرفة الله**». لذلك عَرَّفوا **الفلسفة** بأنها (**محاولة العقل إدراك حقيقة كل شىء وأصله وغايته**).

والمحرك الأول للإنسان ليبحث عن الحكمة والغاية، هو شعوره **بالدهشة** وبطوفان التساؤلات عندما يمر بتجربة ما، أو عندما يمر بعقله خاطر ما. لذلك قال أرسطو: «**بالدهشة تبدأ الفلسفة**».

وإذا كانت هذه المسائل تهتم بما وراء الطبيعة (**وتُسمى الإلهيات أو العقائد والغيبيات**) فإن لها انعكاساتها على حياتنا اليومية، لذلك نشأت **الفلسفة العملية**، التى تهتم بالعديد من القضايا التطبيقية، مثل:

- **كيف يكون مسلكنا فى الحياة.**
- **كيف نُربِّى النشء تربية حسنة.**
- **ماذا يجب على قيادة الدولة، حتى تسير على النهج السليم.**

وتحدد هذه المسائل ما ينبغى أن تكون عليه **الأخلاق**، كما تُستمد هى من الأخلاق. وهى مصدر **التشريع** الذى يُحَرِّم المنكر ويردع الذين يرتكبونه.

وقد انعكس الفكر الإلحادى المعاصر، الذى سيطر على العقل الغربى الحديث، على ميدان الفلسفة. فسادت مجموعتان من **المذاهب الفلسفية**:

المجموعة الأولى: فلسفات عبَّرت عن **النظرة العلمية المادية إلى العالم**، منها: فلسفة هوبز، وهيوم، وفلسفة الوضعيين المناطقة أمثال ألفريد آير[3]... إلخ.

(١) رينيه ديكارت René Descartes : الفيلسوف الفرنسى العظيم (١٥٩٦ - ١٦٥٠).
(٢) الميتافيزيقا تعنى: «الاهتمام بما وراء الطبيعة»، والمقصود الأمور الغيبية.
(٣) نعرض الفلسفة الوضعية المنطقية، وكذلك التعريف بهؤلاء الفلاسفة، فى المقدمة التالية.

والمجموعة الثانية: فلسفات عَبَّرت عن **النظرة الدينية إلى العالم**، منها فلسفة ديكارت، وفلسفة كانط[١].

وحتى ندرك التكامل بين الفلسفة والعلم، نعرض ما آل إليه العلم فى العصر الحديث.

ثالثًا: العلم فى العصر الحديث[٢]

منذ القرن السابع عشر أصبح للمعرفة سبيلًا آخر، غير مفاهيم رجال الدين، وهو العلم[٣].

ويهدف **العلم** إلى التوصل إلى **القوانين** التى تربط بين وقائع معينة، وتكون قادرة على تفسير حدوث ظاهرة ما على نحو محدد، وليس على نحو آخر، بل والتنبؤ بتطور هذه الظاهرة مستقبلًا.

وتتميز **المعرفة العلمية** بأنها مبرهَن عليها منطقيًّا، ولا يوجد فى داخلها تناقض عقلى، وأنها قابلة للاختبار من خلال الملاحظة والتجربة العلمية. وبذلك تختلف المعرفة العلمية اختلافًا جذريًّا عن **الاعتقاد الأعمى (الدوجماتى** Dogmatic) الذى هو التسليم المطلق بصحة موضوع ما، بدون تأسيسه عقليًّا والتحقق منه تجريبيًّا.

---

(١) نلخص هنا آراء بعض هؤلاء الأعلام:

أيد **ديكارت** النظرة الآلية للعالم تجاه جميع الظواهر، باستثناء «النفس» و«الله». بينما عَمَّم **توماس هوبز** هذه النظرة الآلية المادية على جميع الموجودات، شاملة النفس البشرية التى طعنها أيضًا فى منظومتها الأخلاقية؛ إذ اعتبر أن الخير هو ما يَسُرُّ الإنسان، وأن الشر هو ما يحزنه، أى أن الأخلاق نسبية ذاتية لا علاقة للإله (المتوَهَم) بها.

أما **ديفيد هيوم** فقد أنكر الآلية كما أنكر الغائية! فكان ينكر وجود قوانين الطبيعة التى تحكم النظرة الآلية! وينظر إلى الأمر كله بعشوائية مطلقة، ويرى أن قوانين الطبيعة ما هى إلا تربيطات بين الظواهر يقوم بها العقل البشرى!

وفى الجانب الآخر، صد **كانط** هجمات المذهب الطبيعى المادى المتلاحقة التى قادها أكبر أنصاره: ديفيد هيوم. لقد أثَّر كانط فى مجرى الفكر البشرى كله، فكان معظم الفلاسفة المحترفين فى أوروبا الغربية، وإنجلترا، وأمريكا – على مدى مائة سنة بعد وفاته – من تلاميذه.

وربما كان أهم ما خَلَّفه كانط القول بوجود عالمين: عالم الزمان والمكان، وهو عالم الظواهر الطبيعية التى يدرسها العلم ويكشف قوانينها. ثم عالم اللازمان: عالم الأزل الذى لا يستطيع العلم أو العقل البشرى أن يصل إليه، وإنما تدركه الروح عن طريق الحدس والشعور والنظرة الصوفية. ويرى كانط أنه ليس هناك تناقض فى أن يعيش الإنسان فى عالمين مختلفين فى وقت واحد، عالم الزمان والمكان وعالم الروح اللامتناهى. وهذا ما ينبغى أن يتبناه إنسان العصر الحديث.

(٢) عن كتاب «الدين والعلم وقصور الفكر البشرى» للدكتور المهندس/ محمد الحسينى إسماعيل – مكتبة وهبة – ١٩٩٩.

(٣) العلم Science: مأخوذ من اللفظ اللاتينى Scientia، ويعنى المعرفة.

ولكن، كيف يتوصل العلم إلى المعرفة وليس لديه نصوص مقدسة يغترف منها ؟

إن الطريق إلى **تحصيل المعرفة** (أى معرفة) يمر من خلال الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأول: لماذا (الغائية أو الحكمة) Why؟

لماذا خُلق الكون؟ لماذا خُلِقت الحياة؟ لماذا الشقاء والتألم؟....

أدرك العلماء أن التعرض لهذه الأسئلة، التى تبحث فى «الغاية» من الأشياء، يقع خارج نطاق العلم، فأنكر بعضهم الغائية، وقَبِلها البعض وتركوها لأهل السبق فيها، وهم **الفلاسفة**.

السؤال الثانى: كيف (الآلية أو الكيفية) How؟

ذلك هو مجال العلم، بشرط إخراج المخادعين والأدعياء من الميدان.

ولتحقيق هذا الشرط، وضع العلماء للعبة أربع قواعد، ينبغى لمن يريد المشاركة أن يلتزم بها :

القاعدة الأولى: لدينا **حواس خمس**، هى أداة العلم عند دراسة أية قضية علمية. ولما كنا لا ندرك بالحواس الجسيمات تحت الذرية والثقوب السوداء وغيرها، فقد أضاف العلماء «**الرياضيات**» وحساباتها الأدق من الحواس، كمصدر للمعرفة.

القاعدة الثانية: ينبغى استخدام منهج محدد فى تحصيل المعرفة العلمية، يُعرف **بمنهج البحث العلمى**، ويشتمل على عدد من المراحل المتتالية :

١ - **جمع المعلومات** وملاحظة الظواهر التى لها علاقة بالمشكلة المراد بحثها.

٢ - صياغة **الفروض** التى تربط بين هذه المعلومات.

٣- إجراء **التجارب** التى تفحص هذه الفروض، وملاحظة النتائج، والخروج بالاستنتاجات.

٤ - التوصل من **الاستنتاجات إلى القوانين** التى تحكم ظاهرة ما.

٥ - الخروج من القوانين **بالنظرية العلمية** المنسجمة منطقيًا، والتى تفسر الوقائع المعروفة لنا من قبل، وتكون قادرة على التنبؤ بوقائع جديدة.

القاعدة الثالثة: استبعاد أى تفسير ميتافيزيقى (غيبى) لأية مشكلة علمية. ويعتبر العلماء هذه التفسيرات مُعَوِّقات للعلم، بل يمكن أن تجهض تقدم العلم تمامًا.

فلو اكتفى العلم، مثلًا، بأن مسبب الأمراض هو الله (أو الشيطان)، لما اكتشفنا الجراثيم وغيرها من أسباب الأمراض، ولتوقف الطب عند مرحلة ما قبل أبقراط[1].

القاعدة الرابعة: ينبغى أن تُطرح المعارف العلمية بأدلتها التجريبية والعقلية، على **الأقران والنظراء** لتقييمها، ثم قبولها أو رفضها، وذلك من خلال المجلات العلمية والمؤتمرات والكتب وغيرها.

ونتيجة لهذا المنهج العلمى الحازم، نجد أن العلم يتخذ من قضاياه مواقفًا **موضوعية**، يستجيب فيها العالِـم لما تقوله الطبيعة. بينما تُعبِّر الفلسفة عن مواقف **ذاتية** ورؤى شخصية، كثيرًا ما تحمل تضاربًا بين آراء الفلاسفة.

وعلى الرغم من تعارضهما الظاهرى، يقدم كل من العلم والفلسفة للآخر خدمات جليلة. وإذا كان الإنسان يحتاج إلى العلم الذى يُعنَى بجوانبه المادية والجسدية، فإنه يحتاج إلى الفلسفة التى تعنى بجوانبه العقلية والنفسية، حتى يمكن القول بأن الاثنين **وجهان لعملة واحدة** هى تاريخ الفكر البشرى.

رابعًا: ما دور الدين؟

رأينا أن كلًّا من العلم والفلسفة (العقل) يشبعان فى الإنسان احتياجاته المادية والجسدية والعقلية والنفسية، ويؤكد ذلك **أن الملاحدة يحيون حياة لا بأس بها. فما دور الدين فى حياة الإنسان؟**

نجيب على هذا التساؤل من خلال منظور الإسلام، كما نفهمه:

أولًا: الدين هو السبيل الوحيد لتعريف الإنسان بربه معرفة صحيحة متكاملة، وتعريفه بما يجوز فى حق الله ﷻ وما لا يجوز.

والدين هو السبيل الوحيد **لتعريف الإنسان بمصدره**، ومساره، ومآله، والغاية من خلقه.

---

(١) أبقراط Hippocrates: هو الطبيب اليونانى العظيم (٤٦٠ ق.م. ـ ٣٧٠ ق.م). يلقب بأبى الأطباء؛ لتأسيسه علوم الطب على المنهج العلمى. وقد صاغ قَسَمًا اشتهر باسمه، يُقْسِم فيه الأطباء عند بداية ممارستهم للمهنة على الالتزام الأخلاقى تجاه المرضى وزملائهم ومهنتهم.

والدين أيضًا هو السبيل الوحيد **لتعريف الإنسان كيف تكون علاقته بربه**.

هذه الأمور هى ما تعرف فى الديانات بـ «**العقيدة**». وهى ليست من أجل ملء فراغ فى فكر الإنسان ومشاعره، ولكن **من أجل إقرار حقائق** لن تنتظم حياة الإنسان إلا بها ـ كما سنرى فى فصول الكتاب ـ.

ثانيًا: **يحدد الدين للإنسان** «**الشريعة**» التى تنظم حياته وعلاقته بالآخرين وبالبيئة من حوله. ويعتقد المتدينون أن الله الخالق للإنسان والعالِم بخبايا نفسه هو الأقدر على سن هذه القوانين فى خطوطها العريضة.

ثالثًا: لا شك أن للإنسان **جانبه الروحى المتطلع إلى الغيب**. ويسعى إنسان الحضارة الغربية الحديثة المنشغل عن الإله بإشباع هذا الجانب بطرق شتى، منها اللجوء إلى العرافين والمتنبئين، ومنها عبادة الشيطان، ومنها الحج إلى أهرامات الجيزة! وما شابه ذلك مما نسميه «ميتافيزيقا بغير أعباء»؛ كل ذلك فى محاولة لتعويض الدين الذى هو السبيل الوحيد لإشباع الجانب الروحى فى الإنسان.

ينفرد الدين بالدور الكامل فى حياة الإنسان فى المهام الثلاث السابقة.

ثم نأتى إلى **مهام أخرى يقوم فيها الدين بدوره من خلال علاقته بالعلم والعقل**، وهذه المهام هى:

رابعًا: **يحث الدينُ الحقُّ على طلب العلم** الذى يهتم بالجوانب المادية والجسدية للإنسان، كما يوجه العقل فى بحثه الفلسفى لإشباع احتياجاته العقلية والنفسية.

بل إن الإسلام يمزج بين الدين والعلم والعقل فى سبيكة ليس لها نظير فى أى منهج آخر. انظر إلى قول الحق ﷻ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

ومن أجل ذلك نجد أن القرآن الكريم ملىء بالدعوة للتفكر، وملىء بالإنكار على من لا يستخدمون عقولهم ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ؟، ويشبههم بالدواب.

خامسًا: الدين الحق هو القائد (المايسترو) الذى يوجه العازفين (العلم والفلسفة) ليلعب كلٌّ دوره فى موضعه المحدد، فلا يتسلل النشاز إلى حياة الإنسان، فهذا دور العلم، وهذا دور العقل، وهذا مجال المفاهيم الغيبية.

فمثلًا، ينبغى للإنسان ألا يتقاعس عن الأخذ بأسباب العلم انتظارًا لمدد السماء، كما ينبغى ألا يرفض مفاهيم الغيب لأنه لا يستطيع أن يرصدها بحواسه تبعًا للمنهج العلمى، فلكلٍّ مجاله.

سَادسًا: وإذا كان **الدين يهتم بالروح، فالدين هو الروح التى تسرى فى كلٍّ من العلم (الآلية) والفلسفة (الغائية)**، وبدون هذه الروح يصبح الإنسان جثة تمشى على قدمين، تنشر العفن فى كل مكان حولها.

ليس هذا تشبيهًا أدبيًّا بليغًا، لكنه وصف علمى دقيق لِـما أصاب الإنسان والأرض، عندما فارقت الروحُ العلمَ والفلسفةَ.

لقد **انطلق العلم هنا وهناك دون ضوابط:**

فاخترع قنابل ذرية تقتل ملايين البشر، وتفسد البيئة إفسادًا لا صلاح له.

وابتكر عقاقير مخدرة تستعبد ملايين البشر. وخلَّق سلالات مدمرة من الجراثيم والفيروسات، التى تصيب ملايين البشر بالمرض المعجز والموت.

كذلك **انطلقت الفلسفة**، بمعزل عن المعارف الدينية، **لتصل بالإنسان إلى إجابات عن تساؤلاته المعرفية لم ترو ظمأه، بل أورثته الحيرة والاغتراب**[1]. وقد عبر عن هذه الحالة شاعر المهجر إيليا أبو ماضى فى أبيات بليغة تقطر بالضياع:

جئت لا أعلم من أين... ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقًا فمشيت
وسأبقى سائرًا شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقى؟
لست أدرى

(١) كما حدث مع سارتر وفولتير، وسنشير إلى تفاصيل ذلك فى الجزء الثانى من الكتاب، الفصل الثالث.

سابعًا: إن الذين نشأوا فى بيئة متدينة، أكسبتهم ما تعارف عليه الناس بأنه **التدين بالميلاد**، يصبح للعقل والعلم - بالنسبة للقادرين منهم - دوره فى **الترقى بتدين الميلاد إلى الاقتناع العقلى ثم إلى اليقين ثم الخشية** ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

بعد هذا الطرح لدور الدين، نوافق الذين يرون أن **الدين منهج شامل** يشتمل على كل شىء، وليست هناك حاجة إلى منهج سواه، بشرط أن **ينظروا إلى الدين بمعناه الصحيح المتكامل**. فكما يتفرد الدين بالدور الكامل فى أمور العقيدة والشريعة والروحانيات (الثلاث نقاط الأولى)، فإن له دورًا يقوم به من خلال العلم والعقل. لو أدرك المتدينون ذلك فلا شك أنهم: سيسعون قدر جهدهم فى البحث عن الآليات باستخدام العلم، ويسعون قدر جهدهم فى فهم الغائية باستخدام العقل، ولا داعى لأن أقول باستخدام الفلسفة، حتى لا نختلف مع البعض حول الأسماء بينما الـمُسمى واحد!

* * *

عودة إلى أنتونى فلو

وتُعتبر رحلة أنتونى فلو خير مثال للتفاعل بين وجهى العملة (الفلسفة والعلم) كمصدرين بشريين للمعرفة. فأنتونى فلو يصف توصله إلى أن «هناك إله» بأنه ثمرة «**رحلة عقل**»، ليس للإيمان الدينى دور فيه. فقد عاش فلو حياته الفكرية كلها فى إطار القاعدة الفلسفية التى أرساها سقراط، وهى: أن «**يتبع الدليل إلى حيث يقوده** We must follow the argument wherever it leads »: ولقد قاده الدليل الفلسفى طوال حياته إلى الإلحاد، وإذا به يدله عند سن الثمانين إلى أن هناك إلـهًا.

أنتونى فلو والتصميم الذكى ...

إن **الدليل العلمى / العقلى / الفلسفى** الذى قاد أنتونى فلو إلى رفض الإلحاد هو مفهوم «**التصميم الذكى** Intelligent Design»، الذى تموج به الأوساط العلمية والفلسفية والدينية منذ الربع الأخير من القرن العشرين[١].

(١) يتبنى هذا المفهوم مجموعة من كبار علماء البيولوجيا والفيزياء والكيمياء والرياضيات، وكذلك مجموعة من الفلاسفة ذوى الاهتمام بفلسفة العلوم وفلسفة الأديان. وقد كَوَّن هؤلاء العلماء والفلاسفة ما يُعرف بحركة التصميم الذكى Intelligent Design movement، وأسسوا فى مدينة سياتل - واشنطن، بالولايات المتحدة معهد الاكتشاف Discovery institute وذلك عام ١٩٩٤، ويقوم المعهد بالبحث فى جوانب التصميم الذكى، وكذلك الترويج لهذا المفهوم.

ويدور مفهوم التصميم الذكى، حول: **إن نشأة الكون وبنيته، وكذلك نشأة الحياة والكائنات الحية تبلغ درجة هائلة من التعقيد، تستبعد تمامًا أن تكون قد حدثت بشكل تلقائى عشوائى، وتُحتم أن يكون وراءها مصمم ذكى عليم قادر.**

وفى هذا المعنى يقول الدكتور أحمد عكاشة[1]: إن من يفهم ويستوعب تشريح وفسيولوجيا وكيمياء المخ، ولا يؤمن بوجود الله، فإنه لم يفهم شيئًا، لأن المخ البشرى هو معجزة الخالق.

- **والآن، إلى التعريف بكتابنا «رحلة عقل»:**

يتكون الكتاب من جزءين: فى **الجزء الأول** نعرض **كتاب «هناك إله» لأنتونى فلو**، وذلك فى بابين:

نعرض فى **الباب الأول** (من خلال ثلاثة فصول) كيف تم تشكيل فكر **أنتونى فلو** ليصبح فيلسوفًا ملحدًا، بالرغم من أنه وُلِد فى أسرة مسيحية شديدة التدين.

وفى **الباب الثانى** نعرض (من خلال ستة فصول) رحلة أنتونى فلو من الإلحاد إلى الإيمان بأن «هناك إله»، فنعرض العوامل التى كانت وراء هذا التحول، وكذلك المفاهيم التى استقر عليها فكره بعد أن بلغ الثمانين من عمره.

كما نعرض **المقدمة والخاتمة** اللتين طلب أنتونى فلو من **روى أبراهام فارجيس**[2] أن يُقَدِّم ويختم بهما كتابه. ويطرح فارجيس فى **المقدمة** تطور مفهوم الإلحاد المعاصر، ودور أنتونى فلو فى مسيرة الإلحاد فى القرن العشرين.

وتحلل **الخاتمة** القضايا الرئيسية التى تعجز الفلسفة المادية والعلم التجريبى عن تقديم تفسير مقبول لها.

انتهى أنتونى فلو فى رحلته العقلية إلى القول بأن «هناك إله»، لكنه لم يتوصل إلى الدليل على تواصل الإله مع الإنسان، من خلال الوحى والأديان السماوية.

(١) أستاذ الطب النفسى، ورئيس الجمعية العالمية للطب النفسى WPA.

(٢) روى أبراهام فارجيس Roy Abraham Vargeese: يُعد من أفضل مَن كتب باللغة الإنجليزية عن العلاقة بين الفلسفة والدين والعلم. وأشهر كتبه التى نالت حظًّا كبيرًا من الذيوع والانتشار كتاب «أعجوبة الوجود The wonder of the world»، صدر عام ٢٠٠٣. وكتاب «الكون والحياة والإله Cosmos, Bios, Theos»، صدر عام ١٩٩٢، ويعرض مفاهيم ٢٤ عالِـمًـا من الحاصلين على جائزة نوبل، واختير أفضل كتاب صدر فى ذلك العام عن الإله. كما حصل روى أبراهام فارجيس على جائزة تمبلتون عام ١٩٩٥.

من أجل الاستدلال على ذلك وضعنا **الجزء الثانى من الكتاب** : «**ونستكمل الرحلة**».

يتكون هذا الجزء من عشرة فصول:

فى الأربعة فصول الأولى، عرضنا أربعة مفاهيم مهمة وأساسية لرحلة العقل، وقمنا بتقويمها بالمنهج العلمى والفلسفى:

- **البرهان الكونى**، الذى يعنى أن دقة بنية الكون تدل على وجود الإله الخالق.
- **المبدأ البشرى**، الذى يعنى أن الكون قد تم خلقه على هيئة ملائمة لظهور الحياة والإنسان.
- **الفكر الدينى**: كيف نشأ الفكر الدينى؟ وما دور الفطرة فى التدين؟ وكيف نُقَوِّم الدين الحق بأسلوب علمى موضوعى.
- **الدين الطبيعى والعلمانية**: هل خلق الله الوجود ثم اعتزله؟! وهل يُصَنَّف أنتونى فلو كأحد أتباع الدين الطبيعى؟

ولا تكتمل رحلة العقل إلى الله، دون النظر إلى **علاقة الدين بالبيولوجيا، متمثلة فى الجينات والمخ** (الفصل الخامس)، **وفى القلب** (الفصل السادس).

وفى الفصل السابع نبحث فى «**حقيقة الذات الإنسانية**»، وهل هى من نتاج المخ البشرى؟ أم أن الذات الإنسانية تتجاوز البيولوجيا؟

وبعد الوقوف مع العلم فى الثلاثة فصول السابقة، ندفع عنه كلًّا من الاستغلال والاتهام فى فصل بعنوان «**العلم بين استغلال الملحدين واتهام المتشددين**».

بعد إدراك المفاهيم السابقة، نصل إلى **الصورة المثلى للعلاقة بين الخالق والمخلوق**، وهى ما يبحث عنه أنتونى فلو، ونعرضها فى الفصل التاسع بعنوان «**الوجود الإنسانى: المصدر ـ المسار ـ المنتهى**».

ونختم رحلة العقل بالفصل العاشر، بعنوان «**بين وحيين**». ونعرض فيه قصة «**حى بن يقظان**» لمؤلفها الفيلسوف الأندلسى ابن طفيل، لنقارن بين رحلة العقل التى قام بها أنتونى فلو فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورحلة العقل التى قام بها ابن طفيل قبله بثمانية قرون.

إن الكتاب **رحلة مع الدين والعلم والفلسفة**، تُعيننا على أن نأخذ **موقفًا يقينيًّا تجاه أخطر قضية فى حياة الإنسان، ألا وهى قضية الوجود الإلهى.**